زمن الشاعر

بقلم أدونيس

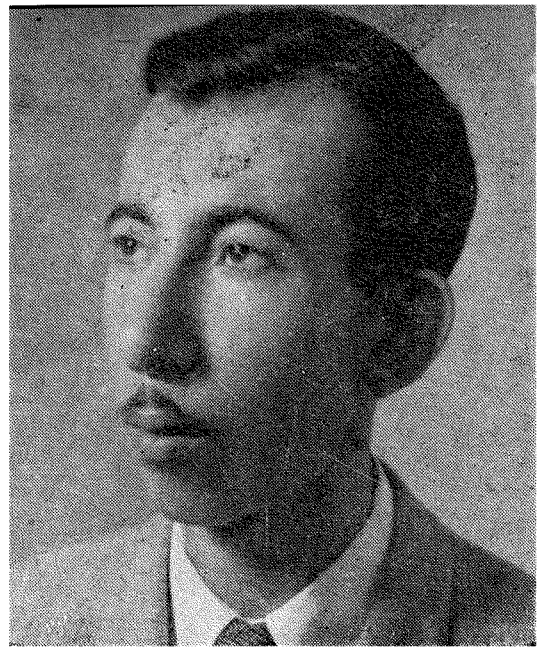

- ١ -

القصيدة عند السياب (*) لقاء بين شكل يتهدم وشكل ينهض . في هذه القصيدة ـ اللقاء يجد رمزا لحياته وشعره معا . وهو يعكس هذا الرمز ، بنبرة حكيم مشرقي ، في « القصيدة والعنقاء » : لا يكون الشاعر او الشعر الا اذا اغتسل من ركام العادة ـ يحترق بناره ، ينبعث من رماده . هكذا يتقطر الماضي كله في لحظة الحضور ، ويكون التجدد ، و « تولد القصيدة » .

الحياة نفسها عند السياب قصيدة : لقاء بين شكل يتهدم وشكل ينهض . انها انبثاق اشكال لانها انهدام اشكال . وهي ، كالقصيدة ، شكل . وليس الشكل تمثيلا نقليا او وصفيا . انه فضاء خارجي يحتوي فضاء داخليا . وهو فيما يحتويه ، يوحي بابعاده .

- ٢ -

التصاق الشاعر بالجماعة يؤدي الى ظاهرتين مترابطتين : تساهل الشاعر في اظهار خصوصيته ، وتقعيد الشعر . الانسان في الجماعة يكبت ما يفرده ، ويظهر ما يجمعه . الوعي ضمن الجماعة ، افكار ثابتة واضحة ، قواعد ، عادات . وهذا يستلزم الثبات في اشكال التعبير عن هذا الوعي .

وكان لنفاد الطاقة الابداعية عند شعرائنا في العصور المتأخرة ، وانعدام روح المغامرة ، ان لجأوا الى تقليد الاصول القديمة ، واهمين ان الشكل الشعري العربي وعاء فارغ يتقدم في التاريخ ، سائلا عن شاعر يملؤه وعن مادة يمتلىء بها . ومن هنا ساد الفراغ ، وبدا كأن الزمن نفسه توقف عن مسيرته . اذ لا زمان ، حيث لا ابداع .

- ٣ -

بدر شاكر السياب من شهودنا الاول على الحضور : ولادة محتوى جديد ، وولادة تعبير جديد . من دلائل هذه الشهادة رفض الفصل بين التعبير والحياة ، الشكل والمحتوى : ليس الشكل وعاء المحتوى ، او رداءه ، او نموذجا ، او قانونا ، وانما هو حياة تتحرك او تتغير في عالم يتحرك او يتغير . فعالم الشكل هو ، كذلك ، عالم تحولات .

غير ان تجربة الشكل عند السياب لم تبلغ استقلالها الكامل . كانت طاقة مشدودة الى الوراء فيما هي تتطلع الى الامام ، ومن هنا ظلت العادة مستسرة في كثير من قصائده . لذلك ليس السياب جديدا دائما . وصل الى طرف العالم القديم لكنه لم يتجاوزه بل ظل عالقا به . لم يسكن ، فنيا ، على الشفير الذي يفصله عما سلف ، ويقذف به في هاوية ما يأتي .

ولست اطالب هنا بضرورة الخروج كليا من الماضي . فمثل هذا الخروج مستحيل لانه خروج من التاريخ . فنحن لا نبدع المستقبل الا في لحظة تتصل جوهريا بالامس والغد . واذا حاد الان عن الامس فلغرض واحد : ان يتجه نحو المستقبل . فما اعنيه هو ان الماضي في شعر السياب اقرب الى ان يكون زمنا خارجيا منه الى ان يكون زمنا داخليا . كان الماضي ارثا وكثافة ، اكثر مما كان ذكرى وشفافية .

وهذا لا يعني ، من جهة ثانية ، ان شعر السياب ليس جديدا . انه طليعة الجدة في شعرنا . وهذه الجدة عميقة اصيلة ليست من الموضة في شيء وهي ، من العمق والاصالة ، بحيث انها تنفي الموضة ـ ذلك القفز فوق الجهود الهائلة التي تقتضيها الجدة ، ذلك الاقتلاع الذي يسير كالنوم ، كتلة بهلوانية وآلة .

ما اعنيه هو ان شعر السياب ليس اكثر من حياته او ابعد منها . انه يلبس حدودها . فليس شعره حياة ثانية .

تجربة السياب ، مع ذلك ، ريادة : بدءا منها ومعها اخذ ينشأ للشعر العربي الجديد وسط تعبيري جديد . وهو ، الان ، من القوة والسيادة بحيث انه يبدو ابداعا مستمرا . كان هذا الوسط وما يزال مفاجئا : الكلمة فيه هي غيرها في معجم العادة . تغيرت ، وتغيرت علاقتها بما قبلها وبعدها ، وتغيرت دلالتها ، وتغير الاطار والتركيب اللذان تندرج فيهما : كأنما صارت اللغة العربية لغة جديدة .

هذا مما باعد ويباعد بين الشاعر والجماعة ، مما ادى ويؤدي الى نشأة زمنين متقابلين متجاورين ضمن

(*) مقدمة لمختارات من شعر بدر شاكر السياب تصدر عن « دار الاداب » قريبا .

الزمن الواحد : زمن الشاعر وزمن الجماعة .

زمن الجماعة خارجي ، تاريخي . زمن الشاعر داخلي وخارجي ، روحي وتاريخي في آن . العمل زمني . القصيدة زمن يتضمن ما هو اكثر من الزمن . لحظة الشاعر الروحية لا تتلاقى بالضرورة مع لحظته التاريخية اليومية، بل ربما ناقضتها . لهذا قد لا تتحد القصيدة بالعمل ، بل قد تسبق القصيدة الفعل ــ قد تكون منارة الفعل .

ويسكن الشاعر في منطقة من الزمن ليست بالضرورة ، تاريخ عصره . قد يزامن عصره ، او يختار نماذجه من الماضي ، او يتصور مستقبلا يتجاوز الحاضر والماضي . وقد يتحول ، فجأة ، فيصبح نقيض الوسط ويحاول ان يخرج منه بحثا عن عالم اخر .

في هذا ما يوضح لنا ان لحظة القصيدة عند الشاعر ليست بالضرورة لحظة الذوق او الفهم عند الجماعة . فكل قصيدة جديدة حقا تخلق ذوقا وفهما جديدين ، وطريقة جديدة في التفهم والتذوق . ولهذا فان القصيدة الجديدة مفاجأة ، حقا .

ـ ٤ ـ

هذه المفاجأة في شعر السياب ، فعالة . فشعره مسكون بهاجس التواصل مع الاخر ، بهاجس التغيير . يلتزم ، يكافح . يريد ان يحقق وعيه الجديد ، في الانسان والحياة . يريد ان يعيد الزمن الذي اوقفه التقليد الى مسيرته ، ان يطلقه في مجاري ايقاعه الجديد .

غير ان الجماعة حوله مقيمة في الماضي ، ذلك الزمن الواقف ، تحيا بالتقليد وافكار التقليد . وهو لا يقدر ان يقيم او يحيا الا في الحاضر ، وان انشد بين حين واخر ، الى الماضي . الحاضر ، في شعوره ، نقطة عالية يرى منها الى الماضي والمستقبل . انه ، اذن ، يعي الحاضر ، وعيا عاليا ، فريدا ــ اي يعي ذاته والعالم ، وعيا عاليا فريدا . وكأن في الوصول الى هذا الوعي وصولا الى الوحدة ، حيث تبعد المسافة الروحية بينه وبين الجماعة . ولعل في هذا ما يفسر ، اليوم وما قبل اليوم ، وحدة الرائد الرائي .

غير ان السياب ظل ، حتى في هذه الوحدة، متضامنا « يعضد المكافحين » . بقي ، فيما يتمزق وحيدا ، يغضب ويكافح من اجل الاخر . ولم تغلبه الوحدة حين لم يعد قادرا على الغضب والكفاح ، وانما استمر في تواصله مع الاخرين ، يتجه اليهم ، ويفصل حبه لهم « دثارا » . واذ عجز فعليا بدأ كفاحه الرمزي : فهو لن ينفصل عن الاخر، لن يفصله عنه الموت نفسه . بل الموت نفسه سيكون ذخره الجديد في الكفاح ، وطريقه الى الاخر .

ـ ٥ ـ

تجربة السياب ، حياة وشعرا ، لقاء بين عالم يتراجع واخر يتقدم ، آتيا من المستقبل . وتتم هذه التجربة في وسط يجسد هذا اللقاء ، وتعبر عن نفسها باشكال تجسد حركة التفتت والنمو في آن . هذا الوسط هو « مدينة السندباد » ، « مدينة السراب » ، « قافلة الضياع » ، « ام البروم » ، « مدينة بلا مطر » ... لكنها ، في الوقت نفسه ، المطر ، والنهر ، والبعث . فلحظة تبدو ساحات هذه المدينة ودروبها مليئة بالحفر والعظام ، وحدائقها مزروعة برؤوس الناس ، والاسوار مضروبة على كل شيء فيها ، نسمع «قطرة همست بها نسمة» تقول ان هذه المدينة ، ان « بابل سوف تغسل من خطاياها » .

هذه القطرة هي التعويذة التي يحملها السياب في حياته وشعره لكي يتغلب على الفقر والجوع والعبودية والظلم ، والتي ستدخل في سلسلة من التحولات آخرها الموت الذي سيكون البداية : بداية الزمن الجديد والحياة الجديدة .

ويدعونا السياب ، في طريقه الشعرية ، الى ان نعاني معه ابعاد هذه المدينة : البعد اليومي الاجتماعي كما تعبر عنه قصيدة « عرس في القرية » ، والبعد الحياتي البورجوازي كما تعبر عنه « اغنية في شهر اب » ، والبعد السياسي القومي كما تعبر عنه « قافلة الضياع » والبعد السياسي الثوري كما تعبر عنه « رسالة من مقبرة » . ويلح علينا ان نرى الى ابعاد اليباس كيف تغطي المنظور كله ، وتحول المدينة الى مقبرة ، الى « حبال من الطين والنار ، يمضغن قلب الشاعر ... » .

هكذا ينهض « السور » بينه وبين المدينة . انه اليأس . انه تمام الغربة في الداخل . والحياة غير ممكنة في مكان ليس اكثر من مقبرة مسورة . « غريب على الخليج » تصور تخليه عن هذا المكان ، اي غربته في الخارج . وفي قصيدته « مدينة السراب » تتخذ غربته بعدا شخصيا حميما . الحب ذاته يصير «مدينة سراب». حتى حين يعانق حبيبته ويصهر « جسمها الحجري في ناره » تظل بينه وبينها « صحارى من الثلوج » .

مع ذلك لا تغلبه الوحدة . فهو لا يستطيع ان يكون

مواقف

سلسلة دراسات رائعة بقلم :

جان بول سارتر

في ست حلقات صدرت كلها

١ ــ الادب الملتزم	٥٠٠	ق.ل
٢ ــ ادباء معاصرون	٤٠٠	ق.ل
٣ ــ جمهورية الصمت	٤٠٠	ق.ل
٤ ــ قضايا الماركسية	٤٠٠	ق.ل
٥ ــ المادية والثورة	٤٠٠	ق.ل
٦ ــ شبح ستالين	٣٥٠	ق.ل

منشورات دار الاداب

قضايا التحرّر الوَطني

كما تنعكس في آداب آسيا وافريقيا

يسر « الآداب » ان تعلن ان عددها القادم سيكون عددا ممتازا ضخما يضم أهم الابحاث التي ستقدم الى المؤتمر الثالث لكتاب آسيا وافريقيا ، هذا المؤتمر الذي ينعقد في بيروت بين ٢٥ و ٣٠ من هذا الشهر (آذار) .

وبسبب موعد المؤتمر هذا ، سيتأخر صدور هذا العدد الممتاز بضعة ايام عن موعده .

نفسه ، اذا لم يكن الاخرين . فليست مأساته في انه يرفض الاخر او يتعذب ، وانما هي في استحالة انقطاعه عن الاخر . فلا خلاص امامه ، لكن لا هرب ، كذلك . هذا مما كان يزيد حنينه الى التواصل مع الاخر ، شدة وتفتحا . غير انه لن يتوجه هذه المرة ، الى الاخر مباشرة ، بل الى الكون : سيغمر الانسان ويحتضنه ، فيما يغمر الكون كله ويحتضنه .

ـ ٦ ـ

التناقض بين اليأس والرجاء ، العذاب والفرح ، الضعف والقوة ، هو ما يشكل النفس الفاجع في شعر السياب . هذا التناقض شهادة على الحياة لا معها . واذ يتساءل السياب ، مباشرة او مداورة ، عما اذا كانت الحياة تستحق تعب الانسان من اجلها ، فان تساؤله يتضمن الرغبة في تسويغها ، وتخليصها ، بشكل او اخر ، من التناقض . وكيف يزول التناقض ـ اي هل يمكن محو الالم ؟ ربما ، بالنسبة الى من يتشبث بظاهر العالم ، مكتفيا به ، يزينه ، ويزخرفه ، ويحيطه بمجد الشكل المصنوع المتألق . غير ان السياب رأى نفسه يتغلغل في طريق ثانية : يتخطى ألق الخارج ، لكي ينصهر في الداخل ، في الكيان الاول ، في الغياب ، في الجسر العائم المتحرك بين الموت والولادة ، اليباب والبعث ، في ابدية الرمز وحركيته . وفي هذا ما يفسر النسيج الاسطوري في شعره ، وبخاصة ، ما اتصل منه برمز الموت والبعث .

ان نموذج الانسان في تجربة السياب ليس من يتحقق ضمن ظاهر العالم ، بل هو من يكون بمثابة قرار العالم وعمقه ، حيث يجيء الاخرون ويبنون فوقهما ، ويوحيهما ، ظاهر العالم : الحياة الانسانية . انه الانسان « البذرة » و « المستقبل » . وهذا الانسان ، في جوهره ، فاجع ، بل هو انسان الفاجعة .

العمل (الثوري ، بخاصة) هو الذي ينقل هذا الانسان « البذرة » ، الى الصيزورة والحصاد . العمل هو صعود العمق لكي يصير شكلا على الارض . هو تجسيد الفكرة . ويصور لنا السياب في شعره ، الفشل الكامل في حركة هذا التجسيد . ويصور لنا ، كذلك ، استحالته . وما يزيد في هول الفاجعة ان النسر الذي ينهش قلب الشاعر هو نسر الحسرة ، هذه المرة ، لا نسر التمرد ، ذلك ان الصخرة التي يدحرجها ليست هذه المرة ، هي كذلك ، صخرة الهية بقدر ما هي صخرة انسانية . وكيف يمكن الاستمرار في حياة لا تختلج الا بكل ما يناقض الحياة ؟ فليقل الشاعر صلاته الاخيرة حيث تتحول « القطرة التي همست بها نسمة » الى « انشودة مطر » الى طقس اغتسال وتطهر ، الى فيض . وها هي الجبال تطلق « الرعود والبروق » التي « تذخرها » وها هي الرياح التي تكنس اثار اليباب : انها علامة الولادة ، علامة الحياة الجديدة .

لكنها علامة لا تأتي الا تتويجا لعلامة الموت التي تسبقها . لا بد ، اذن ، من « الهبوط الى القرار » ، والدخول في كون « البذرة » : لا بد من الموت . الموت هنا ضرورة وجود : وصلت حياة الشاعر الى حد لم يعد بامكانها ان تتجاوزه . انتهت . وبالموت تنتقل الى الفعل ، من جديد ، تنتقل من النهاية الى اللانهاية .

ـ ٧ ـ

في قصيدة « النهر والموت » يصور السياب حنينه الى الموت ، الى ان يكون فعلا يرتبط بالارض كالنهر . كأنه يحن الى توكيد الحقيقة التي لم يستطع ان يؤكدها في ايامه بين الناس . فالموت من اجل الحقيقة اعمق ما يضيئها : يتلاقى الذاتي والموضوعي ، ينوجد ما كان تصورا ، ويتجسد ما كان ممكنا . بل يصير الانسان كالنهر ، كالماء : حيا ، يولد من ذاته ، يدخل في تكوين العالم ، في نسيجه الكوني . الحياة الميتة تنقلب الى موت حي . لا يعود هناك غير الماء ، غير الولادة المستمرة .

الموت في النهر حياة تتجاوز الموت : تخلص ، تبدىء وتعيد . والموت في النهر سفر مزدوج : في الذات وخارج الذات ، ـ في الكون . والموت في النهر نرجسية كونية تتحد بالماء الكونية .

والماء امومة ، فالموت في الماء عودة الى الامومة .

هذا الحنين الى الموت في « النهر والموت » ينقلب في « المسيح بعد الصلب » الى موت ـ قيام رمزي بالتضحية . الانسان هنا حي في الموت اكثر منه في الحياة . فليس الموت هو ما يحول دون الحياة ، بل الحياة نفسها هي التي تحول دون الحياة . الموت هنا « مخاض المدينة » ـ ذروة تبدأ بها حياة اجمل واعلى . وهو اذن يكسر باب السجن الذي يتفتت الشاعر ضمن جدرانه ، ويفتح له ابواب التجدد . الموت حياته : حرق « ظلماء طينه » ، وصيره « جيلا » و « مستقبلا » ، و « بذرة » .

ـ ٨ ـ

من الحق ان نلاحظ ان الحنين الى الموت ، عند السياب ، لا ينبعث من الحب والغضب والفتوة وحسب ، وانما ينبعث كذلك ، وبخاصة في معظم قصائده الاخيرة ، من الاستسلام وشيخوخة الروح . كان في بداياته يطلب الموت ، وهو في نهاياته ينتظره ـ يدعوه بشيء من اليأس ، خاضعا للعادة الابدية التي نسميها القبر . ومنذ اخذ ينتظر مجيء الموت ، صار شعره يتبع لحظات ايامه ، صار اضيق من الحياة واقل . كان في بداياته يشعرنا بأنه يهجم على الحياة ، يحيطها ، يخترقها بنهر آسر من جدل العذاب والفرح ، وهو في نهاياته يشعرنا بان الموت يخيم في دمه ونبضه . الفتوة شيخت ، والمحارب استسلم . كذلك قصيدته : كانت شبكة فصارت خيطا . لم يعد الزمن فيها عاليا او عميقا . صار مستويا . لم يعد انبجاسا ، بل اخذ يمتد سطحيا كزمن الاخرين . لم تعد القصيدة توقف الزمن او تستمهله او تأسره في ايقاعها : صار يفلت منها ، ويجري فوقها ، ويجرفها . لقد «هرم المغني» حقا .

ـ ٩ ـ

يتعب ، ينتظر الموت : لم لا ؟ الانسان نفسه نهر يجري . كالنهر ينزف ابدا ، لكن دمعه خفي تحت خديه ، وراء اهدابه . كالماء يموت كل يوم . الانسان يسير مرهقا نحو الراحة . ولا راحة الا في اعماق الارض .

جيكور ، اذن ، هي مكان الراحة الاخير .

جيكور ـ البيت : مأوى الحلم وحصنه ، قوة تجمع الضائع ، تمركز المبعثر ، ضمان وحماية ، سعادة دائمة .

جيكور عالم اول : الانسان وجد اولا في مهد هو البيت ، وجد محروسا ، محوطا . جيكور الولادة الاولى ، جنة المهد . فيها تبقى الطفولة ، كما هي ، طفولة . وجيكور هي الام ، الابدية الحاضنة .

وتتخذ جيكور في شعره شكلا انسانيا تسري فيه طاقة الروح والفعل . وتبدو لنا بذرة ثورة لا تغلب ، وبطولة كونية تؤكد للشاعر حضوره المستمر في العالم . انها طاقة وجود ، وطاقة تكفل استمرار هذا الوجود . وهي رمز العمل لوجه العمل ـ كالسماء والمطر والعشب .

ـ ١٠ ـ

المهد بداية اليقظة من السديم . اللحد نهاية اليقظة . في الحنين الى المهد حنين مضمر الى اللحد . في التطلع الى الحياة الاولى تطلع الى حدود لا تفصل عن الموت ، تطلع الى الموت . المهد عتبة : نخرج منها الى الحياة ، ندخل منها الى الموت . في هذه العتبة تتداخل الابوة والامومة : الابوة سهم يتحرك ، سفر يستبسل ويحقق ، الامومة ملجأ وملاذ ، هاوية للراحة ، بيت جسدي للدفء والغذاء ، خميرة الحلم . وحين ترك الشاعر جيكور كان يعشق الحركة لان الفعل يشعره بالتفوق ، ويصله باللانهاية . وحين عاد ، كان يعشق السكون . فسكون جيكور يولد هو ، كذلك ، الشعور باللانهاية . الفعل صخب ، والصخب يحول المكان الى كتلة رنين ودوي . الصمت ينقيه ، يجعله اكثر صفاء ـ اكثر اتساعا وعمقا ، يجعله بلا نهاية . فالعودة الى حضن جيكور ـ الارض ـ الام ، ليست موتا ، وان تكن . انها حياة تصير بالموت فعلا يخرق العادة : تخلق عالما اخر ، وسطا اخر ، نظاما اخر . وحنين السياب الى الغياب في أحضان الامومة حنين الى مصالحة أخيرة بينه وبين الاخر ، بين النفس والعالم ، السماء والارض ، المجهول والمعلوم ، الابدية والزمان . فاذ يغيب في أحضان الام يصبح ، الى الابد حاضرا في الكون .

يدخل في نهر الرموز .

أدونيس